المدرســـة الابتدائية
وتعليم اللغة الأجنبية
للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

ورد فى تقرير اللجنة التى شكلت بوزارة المعارف برياسة سعادة الوكيل المساعد لدراسة هذا الموضوع ما يأتى :

« تكاد تجمع نظم التعليم بالبلاد الأجنبية على أن ليس من المصلحة أن يبدأ الطفل تعلم لغة أجنبية قبل أن يلم إلماماً كافياً بلغته القومية وقبل أن تتسع مداركه لاستيعاب تلك اللغة الأجنبية

ويرجع هذا الإجماع إلى أن المسئولين عن تربية الطفل يرون أن فى التبكير بتعليمه لغة أجنبية إرهاقاً له وإضعافاً للغته الأصلية، وأن تعليمه اللغتين فى وقت واحد يؤدى إلى عدم تمكنه من إحداهما. وهذا إن وافق دولة ما فالأحرى به أن يكون أكثر موافقة لمصر التى يختلف فيها تعلم اللغة الأصلية عن غيرها من الدول، وذلك لأن لغة الكتابة هنا غير لغة الكلام مما يجعل العبء أثقل على كاهل التلميذ المصرى »

وورد فى تقرير السنر مان الخبير الفنى الذى رفعه إلى وزارة المعارف منذ أكثر من عشر سنوات بصفحة ٩٤ ما يأتى :

« إن العبء الثقيل الذى تضعه هذه الحالة اللغوية التربية على كاهل الصبى المصرى تتجلى لنا شدة وطأته بوجه خاص إذا راعينا ما بين نشوء الفكر فى الذهن والتعبير عنه بالكلام من الاتصال الوثيق ، لأن من الصعب كما لا يخفى إدراك ما إذا كان فى الإمكان أن يوجد أحد هذين الأمرين مستقلاً عن الآخر . وعلى أية حال فإن من المؤكد أن توقيف تيار الفكر فى الصبى بتكليفه التعبير عنه بوساطة لغة أجنبية لا بد من أن يعوق نمو ملكة التفكير فيه . وهناك ما يجعلنى أعتقد أن الوسط الذى تنشر فيه لغتان من شأنه أن يؤخر نمو القوى المدركة فى الأفراد الذين يعيشون فيها حتى ولو كانت هاتان اللغتان حيتين وشائعتى الاستعمال ، وعلى ذلك فإن بيئة الصبى المصرى الدراسية التى تتغالب فيها لغتان إحداهما ميتة لا بد من أن يكون أكثر تعويقاً لنمو مداركه من الوسط آنف الذكر . فبدلاً من أن تكون المراحل الأولى من تعليمه أطوار نمو طبيعية يكاد لا يشعر بها فإنه يراها شاقة إذ أنه لا يقضيها أحياناً إلا فى الكدح فى تحصيل قواعد كلامية »

وقال هنرى سويت فى كتابه : « دراسة اللغات العملية » ما يأتى :

« بما أن اللغات ليست عقلية إلا فى بعض عناصرها فإن تحصيلها لا بد أن يكون إلى حد كبير بطريقة آلية ، والدراسة الآلية لا تحتاج إلى عقل مبتكر ولا إلى ملكة ممحصة ناقدة »

ومنذ سنوات طويلة نبهنا الخبيران الفنيان : مان وكلابريد إلى النقص المخيف فى تكوين شبابنا وتنمية عقولهم فى نواح متعددة أهمها فى ملكات الابتكار والنقد والتفكير . وجاء فى هذا العام مكتب تخديم الشبان بوزارة المالية فأثبت لنا ذلك النقص عن طريق الشركات التجارية والصناعية التى أقدمت على استخدام بعضهم فظهر لها عجزهم فى كثير من الأمور . ولست أشك لحظة فى أن سبباً هاماً من أسباب هذا النقص يرجع إلى دراسة اللغات الآلية التى نركز فيها همنا ونهم الطفل منذ أول اتصاله بالمدرسة من غير أن نفسح مجالاً ما لظهور تلك الملكات الضرورية وإنمائها ! ويكفى أن ندلل على ذلك بأن الطفل بمجرد التحاقه بالمدرسة الابتدائية يصطدم بتخصيص ٢١ درساً من ٣٨ درساً أسبوعياً لدراسة اللغتين العربية والإنجليزية أى بمعدل ٤٦ فى المائة تقريباً من وقته الدراسى ، وهذا الوقت موزع بمعدل ٩ دروس للغة الانجليزية و ١٢ للغة العربية ؛ أى بنسبة ٢٤ فى المائة للغة الانجليزية و ٣٢ فى المائة للغة العربية . فأين تجد المدرسة وقتاً (بعد صرف هذا الوقت كله) للبحث عن ملكات التلميذ الضرورية وتشجيعها وإنمائها والعمل على تكوينه التكوين الصحيح الملائم؟

فإلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية إذن يرفع عن كاهل الطفل المصرى المبتدىء فى التعليم عبئاً ثقيلاً ينوء به ، شهد بوجوده العلماء والخبراء وأحس بثقله الكثيرون من رجال التربية والتعليم فى مصر ، وأقرت بقيامه اللجنة الرسمية التى درست هذا الموضوع . وإلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية يمكن المدرسة من إصلاح حالها فى مواطن متعددة لأنه يعطيها فرصة

واسعة للعمل مع زيادة تثقيف أبنائها فى شتى النواحى القومية والخلقية، كما أنه يساعدها على اتباع أصول التربية وقواعدها المهملة إلى اليوم بين جدرانها . إذ المدرسة فى جميع بلاد العالم لا تقف عند واجب التعليم فقط كما هو الحال عندنا ، ولكنها تتعدى ذلك إلى أمور تتصل بحياة الطفل وبمستقبله اتصالاً وثيقاً وتؤثر فى نفسيته وتكوينه تأثيراً عميقاً يجعل المدرسة الحديثة تنكر نفسها إذا هى أهملتها أو أنقصت من أهميتها . فلقد أصبحت دراسة ميول كل تلميذ على حدة وتوجيهه وتشجيع مختلف الملكات فيه بمجرد ظهورها والعمل الدائم على إنمائها — أموراً لا يمكن للمدرسة الحديثة أن تحيا بغيرها ! والمدرسة المصرية الحالية مع الأسف العميق لا تعنى بشىء منها ! ولا يمكن أن تعنى بشىء منها مادام ٥٦ فى المائة من وقتها ضائعا فى الدراسة النظرية استعداداً للامتحانات !

هذا ولا يذهبن الظن ببعضنا إلى أن إلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية يضعف حالة هذه اللغة فى المدارس الثانوية أو يقلل من أهميتها ، فالأدلة المحسوسة كثيرة على أن هذا العمل يرفع من قيمة هذه اللغة ويقوى مركزها فى التعليم الثانوى والمتوسط التجارى بصفة خاصة ويجعل الاهتمام بها أكبر وأعظم لأن التلميذ الذى انتهى من التعليم الابتدائى حيث تكون تكوينا ملائماً يأتى إلى المرحلة التالية مليئاً بالحيوية والنشاط متجها اتجاهاً جديداً تدفعه جدته إلى الحماس فى الأخذ به . ثم إن القوة فى دراسة لغة من اللغات لا تتوقف فقط على طول المدة التى يقضيها الطالب فى دراستها لأن هذه المدة عامل ثانوى بجانب الطريقة نفسها التى تتبع فى تدريسها وبجانب حماس المعلم وقدرته . وهى أمور إذا أحسنت واستكملت أسبابها دفعت بالطالب دفعاً إلى الاطلاع والقراءة وهى الغاية القصوى التى يجب أن يسعى إليها المعلم والمدرسة معاً . ولا نستدل على ذلك بأكثر مما نراه رأى العين فى مدارسنا اليوم إذ نرى مستوى طلاب البكالوريا فى اللغة الفرنسية لا يقل كثيراً عن مستواهم فى اللغة الإنجليزية بل قد يزيد أحياناً مع أنهم أنفقوا طوال أربع سنوات بالمدارس الابتدائية فى دراسة اللغة الإنجليزية من غير أن يدرسوا كلمة واحدة فى اللغة الفرنسية ، ثم أخذوا يدرسون اللغة الإنجليزية طوال مدة التعليم الثانوى بمعدل تسعة أو ثمانية دروس فى الأسبوع فى نفس الوقت الذى لا يدرسون اللغة الفرنسية إلا بمعدل أربعة دروس فى الأسبوع فقط فى مرحلة التعليم الثانوى وحدها، فاذا يقول أنصار إعطاء مدد طويلة لتعليم اللغات بعد هذا الدليل المادى القوى ؟ فإذا رجعنا ببصرنا بعد ذلك إلى الماضى وجدنا عجباً ، وجدنا أن معظم وزرائنا ومستشارينا وقضاتنا الذين تعلموا على النظام القديم ولم يدرسوا اللغة الفرنسية إلا فى السنتين الأخيرتين من التعليم الثانوى استطاعوا بعدها أن يدرسوا مواد العلوم المختلفة فى مدرسة الحقوق باللغة الفرنسية وأن ينبغ الكثيرون منهم فيها

فهل يصح بعد كل هذا أن نخشى على اللغة الإنجليزية إذا نحن أخرنا البدء بدراستها إلى ما بعد مرحلة التعليم الابتدائى ! لا شك فى أنه لا خوف عليها مطلقاً إذا ألغيناها من التعليم الابتدائى كما إنه لا خوف على اللغة الفرنسية إذا أجلنا البدء بتعلمها إلى ما بعد سنتين من مرحلة التعليم الثانوى

وفوق هذا وذاك فإنا نعلم أن الطريقة المتبعة فى تعليم اللغة الإنجليزية بالمدرسة الابتدائية الآن هى نفس الطريقة المتبعة فى تعليمها بالمدرسة الثانوية وهى طريقة West ولم يقف الأمر عند ذلك بل نجد أن الكتب التى يدرسها التلميذ فى المدرسة الابتدائية بعيد دراستها هى نفسها فى المراحل الأولى من المدرسة الثانوية، وفى هذا اعتراف رسمى عملى بعدم أهمية دراسة اللغة الإنجليزية بالمرحلة الأولى وبأن الطالب إنما يبدأ بتعلمها فعلاً بمرحلة التعليم الثانوى

أما ما نستفيده عملياً من تعليم اللغة الأجنبية فى المدرسة الابتدائية فيتبين بصحيفة ٢٣٨ ، من مؤلفى « التعليم والمتعطلون فى مصر » إذ قد ورد فيه « أما النتيجة العملية التى يستفيدها الطلاب ، وتستفيدها البلاد من تعليم اللغة الإنجليزية فى المدارس الابتدائية فتتبين من الإحصائية التى تنتقل بناجحى الشهادة الابتدائية إلى البكالوريا حيث ينتظر أن يفيدوا أو يستفيدوا من تعلم اللغة الأجنبية . وهنا أوردنا إحصائية يتبين منها النسبة المئوية لناجحى البكالوريا إلى ناجحى الابتدائية فى عدة سنين تقع بين ١٧ و٢٦ فى المائة . ثم قلنا : « فإذا علمنا أن نحو ثلثى الناجحين فى الابتدائية يقفون عند هذا الحد من التعليم وأن ناجحى البكالوريا